(٣٥) يحيى بن معاذ الرازي[١]

ذكر أبي زكريا يحيى بن معاذ الرازي روّح اللهُ روحه:

كان رحمه الله عديمَ النظير في وقته، له لسانٌ في الرجاء خاصَّةً، وكلامٌ في المعرفة، وخُلقٌ عظيم، وبسطٌ ممزوجٌ بالقبض، مشغولاً بعلم الخائفين، وإن كان الرجاءُ غالبًا عليه، كان ترجمان الطريقة، ولسانَ المحبَّة، ذا همَّةٍ عالية، وواعظًا شافيًا، وفي العلم والعملِ له قدرةٌ وقدمٌ راسخةٌ، موصوفًا بالمجاهدة والمشاهدة.

وله تصانيفُ[٢] وكلماتٌ مطبوعةٌ موزونة، وكلامٌ مقبول، ونَفَسٌ مؤثِّرٌ حتى قال بعضُ المشايخ: إنه من الطفولية نشأَ على سيرة المشايخ، ما تكلَّمَ أصلاً بما لا يعنيه، ولا جرى عليه الهزلُ، ولا صدرَتْ عنه كبيرةٌ.

وفي المعاملة والسلوك كان مُجدًّا إلى حيث ما أطاقَهُ أحدٌ.

قال: اعلمْ أنَّ تركَ العبودية ضلال.

و: الخوفُ والرجاء قائمتان للإيمان، فإن لم يوجد ركنٌ من أركانه يكون ضلالةً، فالخائفُ يعبدُ الله تعالى على خوف القطيعة، والراجي يَعبدُهُ رجاءً في الوصلة، فإن لم تحصل العبادةُ لا الخوفُ يصحُّ ولا الرجاء.

---

(١) طبقات الصوفية ١٠٧، حلية الأولياء ١٠/ ٥١، تاريخ بغداد ١٤/ ٢٠٨، الرسالة القشيرية ٦٢، مناقب الأبرار ٢٧٠، المنتظم ٥/ ١٦، صفة الصفوة ٤/ ٩٠، المختار من مناقب الأخيار ٥/ ١٤٥، وفيات الأعيان ٦/ ١٦٥، سير أعلام النبلاء ١٣/ ١٥، العبر ٢/ ١٧، مرآة الجنان ٢/ ١٦٩، البداية والنهاية ١١/ ٣١، طبقات الأولياء ٣٢١، نفحات الأنس ٨٣، النجوم الزاهرة ٣/ ٣٠، طبقات الشعراني ١/ ٨١، الكواكب الدرية ١/ ٧٢٦، شذرات الذهب ٢/ ١٣٨، هدية العارفين ٢/ ٥١٦.

(٢) من تصانيفه كتاب المريدين: انظر هدية العارفين ٢/ ٥١٦.

نقل أنه صعدَ المنبرَ نوبةً، وقد حضرَ في مجلسه أربعةُ آلاف إنسان، فنظر إليهم، ونزل، وقال: من يُتكلَّمُ له ليس[1] حاضرًا.

كتبَ إليه أخوه من مكَّة: إنّي كنتُ أتمنّى ثلاثةَ أشياء، فحصل اثنان وبقي واحدٌ، أسألُ الله تعالى أن يَرزقني ذلك أيضًا، كان مرادي أن أسكنَ باقي عمري ببقعةٍ مباركة، فرحلتُ إلى مكّة، وهي أشرفُ البقاع، وكنتُ أتمنّى خادمًا يُعينني ويخدمني، فرزقني الله جاريةً لائقةً، والثالث أن ألتقي بك قبل الموتِ بتوفيقِ الله تعالى. .

فكتب يحيى في الجواب: أما إنك تمنَّيتَ أن تسكنَ في أفضلِ البقاع، فاجتهدْ أن تكونَ أفضلَ الناس، واسكن أينما تريد، فإنَّ البقعةَ تتزيَّنُ بالرجال، لا الرجال بالبقاع، وأما إنك تمنَّيتَ خادمًا فأعطاك الله، فلو كنتَ ذا مروءةٍ لما صيَّرتَ مَنْ يخدمُ الله تعالى خادمًا لك، ولا شغلتَهُ بخدمتك عن خدمة الله تعالى، فإنك في مقام الخدمةِ وتطلبُ أن تكونَ مَخدومًا!؟ فإنَّ الخدمةَ صفةُ العبد، والمَخدوميةَ صفةُ الحقِّ جلَّ جلاله، وإذا تمنّى العبدُ صفةَ الحقِّ صار فرعونًا، وأمّا إنك تمنّيتَ الالتقاء بي قبل الموت، فإنك لو كنتَ خبيرًا عن الله تعالى لما ذَكرتني، فصاحبِ الله تعالى بحيث لا تذكرْ عن أخيك، فإن هاهنا لا يقرَبُ بالأولاد، فكيف بالأخ؟ فإن وجدتَ الله تعالى فماذا تعملُ بي، ومالك منّي؟!.

نقل أنه بعثَ كتابًا إلى صديقٍ له، مضمونُهُ: الدنيا كالنوم، والآخرةُ كاليقظة، من يرى في المنام أنه يبكي، يدلُّ على أنَّه يضحك في اليقظة، فأنت اخترْ في الدنيا البكاءَ لتضحكَ في الآخرة وتفرحَ.

نقل أنه كانت له بنتٌ، فطلبت يومًا من والدتها شيئًا، فقالت: اسألي من الله تعالى. قالت البنت: أنا أستحيي أن أسألَ الله تعالى شيئًا هو مُشتهى نفسي، فإن كان عندك فاعطني، وإلاّ فلا.

---

(١) في (أ): من نَتكلَّم له ليس.

نقل أنّه مرَّ مع أخٍ له بقريةٍ، فقال الأخُ: هذه القرية موضعٌ جيِّدٌ، ومقامٌ حسن. فقال يحيى: أحسنُ منها قلبٌ فارغ منها، لا يلتفتُ إليها وإلى أمثالها، ولكن اكتفِ من المُلك بالمَلك.

نقل أنه دُعيَ إلى دعوةٍ، وأنه كان قليلاً، فألحُّوا عليه ليأكل، قال: لا نضع من اليد مقرعةَ الرياضة طرفة عين؛ لأنَّ هوى النفس قد اختفى علينا، وينتظرنا في المرصد، فإن سلّمنا إليه العنان لحظةً تورّطنا.

نقل أنه كان عنده في ليلٍ شمعٌ مَشعول، فهبّتْ ريحٌ أطفأته، فصاح يحيى باكيًا، وجزع مُتضرِّعًا، فقيل: وما أصابك؟ قال: شمعُ الإيمانِ في صدورنا كذلك مُضيءٌ، فنخافُ من أن تهبَّ لنا ريحٌ من رياح الاستغناء وتطفئُهُ.

قيل: الدنيا عنده لا تساوي مع ملك الموت حبةً. قال: لو لم يكن ملك الموت لم تساوِ الدنيا حبة. قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأن الموتَ حبسٌ يُوصلُ الحبيبَ إلى الحبيب.

وبلغ يومًا في قراءته هذه الآية: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢١] قال: إيمانُ لحظةٍ لا يعجزُ عن محوِ كفرِ مئتي[١] سنة، فإيمانُ سبعين سنة كيف يعجز عنه؟!.

أقول: يُشير إلى أن الكافرَ إذا آمن فإيمانُهُ يهدمُ ما كان قبلَهُ من الكفر والمعاصي، وإن كان ذلك الإيمانُ ساعةً وأقلَّ، ثم يموت، فالإيمان الأزليُّ المستمرُّ ـ رزقنا الله تعالى ـ أولى بذلك. والله أعلم.

نقل أنه قال: إن قال الله تعالى[٢] يوم القيامة لي: يا يحيى، ماذا تريد؟ أقول: يا إلهي ومولاي، أُريدُ أن تُرسلني إلى قعرِ جهنم، وتأمرَ بأن تُضربَ لي خيمةٌ من النار، ويوضع سريرٌ، فإذا قعدتُ على ذلك السرير تأذنُ لي أن أتنفَّسَ بما وضعتَ في سرِّي ليحترقَ مالكُ وجميعُ خزنةِ جهنَّمَ مع جهنم، ويصيرَ الكلُّ

(١) في (أ): محو كفره مئتي.
(٢) في (ب): نقل أنه قال الله تعالى.

عدمًا محضًا، مصداقُهُ ماوردَ في الحديثِ: «إنَّ النَّارَ تقول للمؤمنِ وقتَ عبورِهِ: جزْ يا مؤمن؛ فإنَّ نورَك أطفأَ لهبي[١]».

وقال: لو كانتِ النارُ في تَصرّفي تحت حكمي لما أَحرقتُ عاشقًا قطُّ، فإنه قد احترقَ مئةَ مرة بنار العشق.

أقول: والتخصيصُ بالمئة إما لبيانِ الكثرةِ لا للحصرِ كما هي العادة في المحاورات، أو لأن المنازلَ بين العبدِ والربِّ كما قال بعضهم: ألفٌ، ثم اختصروها إلى مئةٍ[٢]، وأدرجوا في كلِّ منزلٍ عشرةَ منازل، أوّلُها التوبة، وآخرها الفناء، فكأنَّ العاشقَ السالك[٣] يحترقُ في كلِّ منزلٍ من المنازل المئة نوبةً بنار الاشتياق إلى الحبيب على الإخلاص. والله أعلم..

فقال سائلٌ: ولو كان للعاشق جرمٌ كثير فلا يحترقُ أيضًا؟ قال: نعم؛ لأنَّ الجرمَ لم يصدر عن العاشق بالاختيار؛ لأنَّ عملَ العاشقِ اضطراريٌّ لا اختياري.

ومن كلامه أنه قال: مَنْ فرحَ في خدمة الله تعالى فجميعُ الأشياء تقرُّ عينُها بالنظر إليه.

و: إنَّ الله تعالى أكرمُ من أن يدعو العارفين إلى طعامِ الجنة وإنَّ لهم همَّةً لا يَقنعون إلاّ بلقاء الله تعالى، ودوامُ اللذَّةِ بدوامِ المُشاهدة.

و: على قدرِ ما تُحبُّ اللهَ تعالى يُحبُّكَ الناسُ، وبقدرِ ما تخافُ من الله تعالى يخافُكَ الناس، وبقدرِ ما تشتغلُ بالله يَشتغلُ بك الناس.

و: من استحيا من الله تعالى حالَ طاعتِه، يستحيي كرمُ الله تعالى من أن يعذِّبَهُ بالنار.

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير ٢٢/ ٢٥٨. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٣٦٠: وفيه سليم بن منصور بن عمار، وهو ضعيف.

في (ب): نورك طفّاني.

(٢) كما صنع عبد الله الأنصاري الهروي في كتابه منازل السائرين، إذا جعلها مئة منزلة انظر الحاشية (١) صفحة ٢١.

(٣) في (أ): العاشق الصادق.

و: حياءُ العبدِ حياءُ الندم، وحياءُ الباري تعالى حياءُ الكرم.

ظنُّ العبدِ بربِّه على قدرِ معرفته.

حسنُ الظنِّ بالله من أحسنِ الظنون إذا كان مُقارنًا بالعمل الصالح والمراقبةِ، وأمَّا إذا أَحسنَ بالله مع المعاصي والغفلة فأمنيتُهُ تُورَطُهُ في الخطر.

أقول: لأنَّ حسنَ الظنِّ حينئذٍ يؤدّي إلى فتحِ باب الرجاء بالكليّة، وسدِّ بابِ الخوف بالكلّية، ويصير بالآخرة سببًا للأمنِ من مكرِ الله تعالى ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] **وأيُّ خطرٍ أَخطرُ من هذا؟ والله أعلم.**

وقال: حسنُ الظنِّ يصَدرُ من العمل الصالح، وسوءُ الظنِّ من العمل السيِّئ.

مغبونٌ من صرفَ أوقاته العزيزةَ في البطالة، وضيَّعها في الكسالة، وسلّط جوارحَهُ على إهلاكه، ثم يموتُ قبل أن يفيقَ من هذه الغفلة.

منِ اعتبرَ بالمعاينة استغنى عن النصيحة.

احذروا عن ثلاثة أقوام: عالم غافل، وفقير مُداهن، وصوفي جاهل.

الوحدة والخلوة أمنيةُ الصدّيقين[1]، والأنس مع الخلقِ وحشتُهم.

و: ثلاثُ خصالٍ من صفات الأولياء: الاعتمادُ على الله في جميعِ الأمور، والاستغناءُ به عن جميع الأشياء، والرجوعُ إليه في كلِّ الأحوال.

لو أنَّ الموتَ يُباع في الأسواق ليليق بأهلِ الآخرة أن لا يشتري شيئًا إلاّ الموت.

أهلُ الدنيا يَخدمون العبيدَ والإماء، وأهلُ الآخرة يخدمون الأَبرارَ والأولياء.

ليس بحكيمٍ من لا يكونُ فيه ثلاث خصال: ينظرُ إلى الأغنياء بالنَّصيحةِ

---

(١) كذا في الأصلين، وفي الطبعة المترجمة صفحة ٥٧٦، والخبر في طبقات الصوفية للسلمي ١١٢: مُنية الصديقين. ولعلَّ الصواب: أمنَةُ الصديقين.

لا بالحسد، وينظرُ إلى النساء بالشَّفقةِ[١] لا بالشهوة، وينظرُ إلى الفقراء بعين التواضع دون التكبُّر.

و: من خانَ الله في السرِّ هتكه الله تعالى في العلانية[٢].

من استغنى بالله فلا يزالُ مُستغنيًا، ومن استغنى بكسبِهِ فلا يزالُ فقيرًا.

وقال لأصحابه: ليكن حديثكُم مع الله كثيرًا ومع الناس قليلاً.

العارفُ لو ترك الأدبَ مع الله لهلكَ مع الهالكين.

إن الله تعالى يحبُّ المَجذوبَ أولاً، والمجاهد آخرًا.

سبحانه من إلهٍ، يُذنبُ العبدُ وهو يستحيي منه.

الذنب الذي يجعلك مُحتاجًا إلى الله تعالى أحبُّ من عملٍ يُبعدك عنه.

من أحبَّ اللهَ أبغضَ نفسه.

الوليُّ لا يكونُ مُرائيًا ولا منافقًا.

أقول: ويعلمُ منه أنَّ المرائي والمنافق لا يكون وليًّا. والله أعلم.

ولا يكونُ صدّيقًا من احتاجُ إلى أن أطلبَ منه شيئًا، أو يقول هو: اذكرني بالدُّعاء، أو أَحتاجُ إلى المداراةِ معه، أو أحتاجُ إلى الاعتذار عنه عند صدور زلّةٍ.

ينبغي أن يكونَ نصيبُ المؤمنِ منك ثلاثة: الأول: إن لم تُوصلْ إليه منفعةً فلا تُوصل إليه مضرَّةً.

أقول: تلخيصه: إن لم تنفعْهُ فلا تضرَّه. والله أعلم.

والثاني: إن لم تُفرحْه فلا تُحزنه، الثالثُ: إن لم تَمدحْه فلا تذمَّه.

لا حماقةَ أَعظمُ من أن يزرعَ بذرَ النار ويطمعَ في الجنة.

---

(١) في (ب): وينظر إلى الناس بالشفقة.

(٢) في الأصلين: من خاف الله في السرّ. والمثبت من الرسالة القشيرية ٦٣.

ذنبٌ واحدٌ بعد التوبة أَسوأُ من سبعين قبلها.

حسبُكم من الدواء تركُ الذنوب.

العُجبُ ممّن يَحتمي من الطعام مخافةَ العلَّةِ، ولا يحتمي من الذنوب مخافة العقوبة.

كرمُ الله تبارك وتعالى في خلقِ النَّارِ أظهرُ منه في خلق الجنة؛ لأنّه تعالى وإن خلقَ الجنَّة ووعدَ بها، لكن لو لم يخلق النار وأوعد بها لم يُطعْه أحدٌ.

الدنيا موضعُ الشغل، والعبدُ لا يزالُ مَشغولاً، ولا يعلمُ أنَّ مستقرَّه الجنةُ أو النار.

جميعُ الدنيا من الأَوّل إلى الآخر لا تساوي ساعةً من العُمر، فكيف يسوغُ لشخصٍ أن يُمضي جميعَ عُمره في هموم الدنيا[1] وأحزانها مع قلّة الحظِّ منها.

الدنيا دكّانُ الشيطان، فعليك ألاّ تسرقَ منها شيئًا، وإلاّ فهو يأتي، ويستردّ منك.

الدنيا خمرُ الشيطان، من سكرَ منها لا يصحو إلاّ بين عسكرِ الله يوم القيامة مع الندامة والخسران.

أقول: فإن قال قائل: هذا الكلام[2] منافٍ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ١ـ ٢] فإنَّ الآيةَ تدلُّ على أنّ الناسَ يوم القيامة يكونون سكارى، والشيخُ صرَّحَ بأنهم حينئذ يصحون وبينهما منافاة، نقول: لا منافاةَ بينهما، إمّا لأنَّ الآيةَ دلّتْ على أن السُّكْرَ يكون لزلزلةِ الساعة ـ أي قيام القيامة ـ كما يدلُّ عليه سياقُ الآية، ويحتملُ أن يحصلَ بعد هذا السكر للصحو، أو يحتمل أن يزولَ السُّكرُ

---

(١) في (أ): في شغل الدنيا.

(٢) في (ب): قال قائل: ليس هذا الكلام.

الحاصلُ من الدنيا، ثم يحصلُ سُكْرٌ آخرُ لأجل زلزلةِ الساعة، هذا ممّا خطر بالبال. والله أعلم.

وقال: الدنيا كالعروس، وطالبُها كالماشطة التي تُزيِّنُها، والزاهدُ من يسوّدُ وجهَها وينتفُ شعرها.

الدنيا غمومٌ وهموم، وأحزانٌ وأشجان، والآخرة فيها عقابٌ وعتاب وعذاب.

أقول: فالمستريحُ من لا يلتفتُ إليهما؛ بل في الفرار منهما جميعًا إليه تعالى قال: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] مولاكم الحقّ. والله أعلم.

وقال: يقول الله تعالى: عبادي، أنتم تَشتكون عنّي، أفلا يَكفيكم أنَّ الدنيا والآخرةَ لي، وأنا لكم؟!.

في كسبِ الدُّنيا مذلَّةُ النفوس، وفي كسبِ الآخرة عزَّتُها، فيا عجبًا ممّن يَختارُ الذلّةَ والهوان في اكتسابِ شيءٍ لا يدوم ويَفنى.

شؤمُ الدنيا إلى غايةٍ تمنّيها يشغلُكَ عن الله تعالى، ويُبعدُكَ عن مقامِ القُرب، فما ظنُّكَ بطلبها ثم بحصولها.

العقلاءُ ثلاثة: مَنْ تركَ الدنيا قبلَ أن تتركَهُ الدنيا، ويعمرُ القبرَ قبل النزول إليه، ويُرضي اللهَ تعالى قبل الوصولِ، والوقوفِ بين يديه.

شيئان ما سمعَ الأوّلون والآخرون أشدَّ منهما: الأول أن يؤخذ منه ماله الذي جمعه، والثاني أن يُسألَ عنه ذرَّةً ذرة.

الدينارُ والدِّرهم عقربٌ في الدنيا[1]، فعليك أن لا تمسَّها قبل تعلُّمِ الرُّقية. قيل: وما هي؟ قال: رقيتُها أن يكونَ دخلُهما من الحلال، والخروجُ بالحقّ.

طلبُ العاقل للدنيا خيرٌ من تركِ الجاهل لها.

يا أربابَ الدنيا، ويا حملةَ العلم، قصورُكم قيصرية، ومساكنُكم كسراوية،

---

(١) قوله: (في الدنيا) ليس في (أ).

وعماراتكم وبساتينكم شدّادية[١]، وأثوابُكم عادية[٢]، وهل لكم أشياءُ أَحمدية؟.

طالبُ الدنيا لا يزالُ في ذُلِّ المعصية، وطالبُ الآخرة في عزِّ الطاعة[٣]، وطالب الحقِّ في الرَّوح والراحة.

لبسُ الصوف دكّانٌ، وحديثُ الزهد حرفة.

التكبُّرُ على من يتكبَّرُ بمالِهِ تواضعٌ.

سقوطُ المرء عن درجته إذا ضاع في نفسه.

لا غنًى للمُريد عن ثلاثة: بيت يُواريه، وكفاف من التوكُّل، وخوف من العبادة.

إذا ابتُلي المُريدُ بكثرة الأكل تَبكي عليه الملائكة.

من ابتُلي بحرصِ الأكل فعن قريبٍ يُحْرَقُ بنار الشهوة.

في جسدِ المُريد ألفُ عضوٍ من الشرِّ، وكلُّها بيد الشيطان، فإذا جاعَ المُريد وارتاضَ يبستِ الأعضاءُ كلُّها بالجوع، وتحترقُ بنار الرياضة.

الجوعُ نورٌ، والشَّبعُ ظُلمة، والشهوةُ حطبٌ يحصل منه نارٌ لا تخمد حتى تحرقَ صاحبَها.

ما شبعَ عبدٌ إلاّ أذهبَ اللهُ تعالى عنه شيئًا لا يجدُه أبدًا.

الجوعُ طعام الحقِّ في الدنيا، أجسادُ الصدّيقين تتقوّتُ[٤] بها وتتربّى.

الجوعُ رياضةٌ للمريدين، تجربةٌ للتائبين، سياسته مكرمة للعابدين للعارفين.

---

(١) شدادية: نسبة إلى شداد بن عاد، ملك يماني جاهلي قديم، من ملوك حمير.

(٢) عادية: نسبة إلى عاد بن عوص بن إرم، جدٌّ جاهلي قديم.

(٣) في (أ) في عز الدنيا.

(٤) في (ب): الصديقين، تتوقّدُ بها.

أعوذُ بالله من زاهدٍ يُفسدُ معدتَه بكثرة الأكل لألوان أطعمة الأغنياء.

أهلُ السلوك ثلاثة: زاهدٌ، ومشتاق، وواصل. الزاهدُ يُعالجُ الصبرَ، والمُشتاقُ السُّكرَ، والواصلُ الولايةَ.

إذا رأيت المرءَ يشيرُ إلى العملِ ويدلُّ عليه فاعلمْ أنه يَسلكُ طريق الورع، وإن أشارَ إلى الآياتِ فاعلمْ أنه من الأبدال، وإن تعلّقَ بالذكر فاعلم أنّه من العارفين.

لا تكون شاكرًا ما دمت شاكرًا؛ لأنّ الشكرَ هوالتحيُّر.

لا يسكنُ قلبُ مُريدِ الآخرة إلاّ في أربعة مواضع: إمّا في زاويةِ بيتٍ، أو مسجدٍ، أو مقبرةٍ، أو موضعٍ لا يراه أحد.

قيل: وما أشدُّ شيء على المريد؟ قال: مُجالسةُ الأضداد.

انظرْ إلى أُنسك في الخلوة، وإلى أُنسك بالخلق في الجلوة، فإن كان أُنسُك بالخلوة، فإذا خرجتَ منها زالَ الأُنس، وإن كان بالحقِّ فتستوي عندك الخلوة وغيرها، ويكون أنسُك بالحقِّ حاصلاً في جميع الأماكن.

الوحدة جليس الصدّيقين.

حقيقةُ الصبرِ تنكشفُ عند نزول البلاء، وحقيقةُ الرضا عندُ مكاشفة المقدور.

من أحبَّ يومه فينعدم بمجيء الغد، ومن أبغضَ يومَه يصلُ إليه مُرادُه غدًا.

ضيعانُ الدِّين من الطمع، وبقاؤه في الورع.

مقدارُ خردلةٍ من المحبَّةِ خيرٌ عندي من عبادة سبعين ألف سنة بلا محبة.

يحتاجُ العمل إلى ثلاثة: العلم، والنية، والإخلاص.

بالتوكُّل يُمكن أن تحصلَ العبودية، وبالإخلاص الجزاءُ، وبالرضا بالقضاء يطيبُ العيش.

الإيمان ثلاثةٌ: الخوفُ، والرجاء، والمحبة. ففي ضمنِ الخوف تركُ

الذُّنوب المُنجي من النار، وفي ضمن الرجاء في الطاعة خوضٌ في الجنة، وفي ضمن المحبّة احتمالُ المكاره ليحصلَ رضا الحقِّ جلَّ جلاله.

العارفُ من لا يكون شيءٌ عنده أَحبَّ من الذكر.

الخوفُ شجرةٌ في القلب وثمرتُها الدُّعاءُ والتضرُّع.

إذا صارَ المرءُ خائفًا أطاعته جوارحُه في الطاعات، واجتنبتْ عن المعاصي.

أعلى منازل الواصلين الحياءُ.

لكلِّ شيءٍ زينةٌ، وزينةُ العبادة الخوف، وعلامة الخوف قصر لأمل.

أعلى منازل الزهد التواضعُ.

علامةُ الشوقِ أن يحفظ الجوارحَ عن الشهوات، ويمنَعَها عنها.

الطاعةُ خزانةٌ لله تعالى، ومفتاحُها بيده تعالى.

التوحيدُ نورٌ، والشركُ نارٌ، فنورُ التوحيد يحرقُ سيِّئات الموحِّدين، ونارُ الشرك يحرقُ حسناتِ المشركين.

الورعُ هو الوقوفُ على حدِّ العلم من غيرِ تأويلٍ.

الورع على قسمين: ورعٌ في الظاهر، وهو أن لا يتحرَّكَ إلاّ بالله، وورعٌ في الباطن، وهو أن لا يخطرَ بالبال غيرُ الله تعالى.

الزهد ثلاثةُ أحرفٍ: الزاي، والهاء، والدال، فالزاي تركُ الزينة، والهاء ترك الهوى، والدال تركُ الدنيا.

يظهرُ من الزهد السخاوةُ بالملك، ومَنْ يُحبُّ بالنفس والروح.

الزاهدُ من يكونُ على تركِ الدنيا أحرصَ منه على طلبها.

الفوتُ أصعبُ من الموت؛ لأنَّ الموتَ انقطاعٌ عن الخلق، والفوتُ انقطاعٌ عن الحقِّ.

من تكلّمُ قبل أن يتدبَّرَ يندم، ومن تفكَّر ثم تكلَّمَ سلم.

علامةُ التوبة النصوحِ ثلاثة: قلةُ الأكل بسبب الصوم، وقلّة النوم بسبب الصلاة، وقلّة الكلام بسبب الذكر.

ذكرُ الحقِّ تغرقُ فيه الذنوب، فكيف رضاه؟ ورحمتُهُ تُدهشُ العقول، فكيف ودُّه؟ وودُّه يُنسي جميعَ ما سواه، فكيف لطفه؟.

قيل: بأيِّ شيءٍ نعلمُ أنَّ الله تعالى راضٍ عنَّا أو لا؟ قال: فإن كنتَ راضيًا عنه فاعلمْ أيضًا أنه راضٍ عنك.

قيل: يكونُ أحدٌ لا يكون راضيًا عنه، ويدّعي معرفته؟ قال: نعم، فإنّ من يكون غافلاً عن إنعامه يكونُ ساخطًا معذورًا، فلا يكونُ راضيًا لا من النعمة ولا من المُصيبة[1].

إن لم يصلْ إليك رزقُكَ ثلاثةَ أيام، وأنت لا تصيرُ في نفسك ضعيفًا، فاجلسْ حينئذٍ مع الزاهدين، وإنْ لم تكن واصلاً إلى هذه الدرجة، فجلوسُكَ على بساط الزهد جهل.

قيل: متى يبلغُ المرءُ درجةَ التوكّل؟ قال: إذا كان راضيًا بوكالة الله تعالى.

قيل: ما الفقر؟ قالَ: أن يصيرَ المرءُ عن جميع الكائنات مُستغنيًا بربّه.

نقل أنه ذُكر عنده الفقر والغنى، قال: لا وزنَ غدًا للفقير ولا للغني، وإنَّما الوزنُ للصبر والشكر.

قيل: من أثبتُ في الزهد؟ قال: من تيقُّنُهُ أكثر.

قيل: ما علامةُ المحبة؟ قال: أن لا تزيدَ بالإحسان، ولا تنقصَ بالجفاء.

نقل أنه استوصى منه شخص، فقال: سبحان الله، نفسي لا تقبلُ منّي، فغيري كيف يقبل؟!.

وقيل له: جماعةٌ من الناس يذمُّونك. فقال: إنْ غفرَ اللهُ لي فلا يَضرُّني ذمُّهم، وإلاّ فأنا حريٌّ بأن يُقال فيَّ أكثرُ مما يقولون.

---

(١) في (أ): ولا من المعصية.

ومن مناجاته أنه قال: إلهي، إنّي بالسيئات أَرجى إليك من الحسنات، لأنّي لا أقدرْ[١] على طاعةٍ بالإخلاص تليقُ بكبريائك، وأنا بالآفة موصوف، ولكن أَجدني[٢] في الذنوب راجيًا عفوك، وأنت كيف لا تعفو عني وأنت بالجود معروف.

إلهي، أرسلتَ موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعونَ الطاغي الباغي، وأمرتَهما أن يقولا له: ﴿قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] فهذا لطفك مع من قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] فمن يعلم أنَّ لطفَكَ كيف يكونُ مع من يقول: سُبحان ربِّي الأعلى.

إلهي، ليس لي في الدنيا من الأموالِ والأَملاك إلاّ فلقةُ كساءٍ غليظٍ أسودَ عتيق، وأنا مُحتاجٌ إليه، ومع هذا إن سأله منّي شخص فأنا لا أمنعه عنه، ولك ثمانية عشر ألف عالَمٍ وأعلم أنك لا تحتاجُ إليها مثقالَ ذرَّةٍ، فكيف تمنعُ لُطفك ورحمتَك عنّا ونحن مُحتاجون إلى رحمتك؟!.

إلهي، كما أنَّ ذاتَكَ لا تُشبه ذوات المخلوقين، فكذلك أَفعالُكَ لا تُشبه أفعالَهم، فمن أحبَّ أحدًا لا يُوصل إليه إلاّ الراحةَ، ولا يُريدُ وصولَ مكروهٍ إليه، وأنت إذا أحببتَ أحدًا أَمطرتَ عليه أمطارَ البلايا.

إلهي، أيُّ شيءٍ قسمتَ لي من الدنيا فأَعطِه الكفار، وما قسمتَ لي من الآخرة فارزقه للمسلمين؛ فإنّي اكتفيتُ في الدنيا بذكرك، وفي الآخرة بلقائك.

إلهي، كيف امتنعُ بالمعصية عن الدعاء، وأَراكَ لا تَمنعُ عنّي بالمعصية العطاءَ؛ فإنّي أَعصي، وأَنت تُعطي، فلذلك أدعو[٣].

إلهي، وإنّي وإن لم أقدرْ على تركِ الذنوب، فإنَّكَ قادرٌ على العفو والمغفرة.

---

(١) في (ب): أرجى إليك منّي بالحسنات، لأني أقدر.
(٢) في (ب): ولكن أجرني.
(٣) في (ب): فكذلك أدعو.

إلهي، ما يصدر عنّي من الذنوب[١] فذو وجهين، له وجهٌ إلى لطفك، ووجهٌ إلى ضعفي، فاغفرْ لي إمّا بلطفِكَ وإمّا بضعْفِي.

إلهي، أخافُ منك بسوءِ أعمالي، وأرجوكَ بفضلك، فلا تمنعْ فضلَكَ عنّي بسبب سُوءِ أعمالي.

إلهي، اعف عني فإني لك.

إلهي، كيف أخافُ منك وأنت لطيف؟! وكيف أخافُ منك وأنت كريم؟!.

إلهي، كيف أتوجَّه إليك وأنا عبدٌ عاصٍ، وكيف أُعرضُ عنك وأنت برٌّ كريم.

إلهي، أخافُ منك لأنّي عبدٌ، وأرجوك لأنَّك إله.

إلهي، إنّك تحبُّ أن أحبَّكَ، وأنت غنيٌّ عني، وعن حُبّي، فإنّي كيفَ لا أُحبُّ أن تُحبَّني مع كثرةِ احتياجي إليك؟.

إلهي، أنا غريبٌ، وذكرُك غريبٌ، وأنا ألفتُ ذكرَكَ؛ لأنَّ الغريبَ يألفُ الغريب.

أجلُّ الأشياء في قلبي عطاؤك، وأحبُّ الأوقاتِ إليَّ يوم لقائك.

إلهي، ليس لي عملُ أهلِ الجنة، ولا طاقةُ النار، فأمري مُفوَّضٌ إلى فضلك.

قال: إن قيل لي يومَ القيامة: بماذا جئت؟ أقول: إلهي، جئتُ من السجنِ بشعرٍ أَشعث، وجسدٍ أوسخ، وخجلةٍ كثيرةٍ مُتراكمةٍ بعضها على بعض، فاغسلني إلهي وشرّفني بخلع لطفك وكرامتك.

نقل أنَّ يحيى رحمه الله اجتمع عليه مئةُ ألف درهم دينًا، صرفها على الغُزاةِ والفقراء والفقهاء والعلماء والصوفية، والغرماءُ يتقاضونه، وقلبُه يصيرُ مشغولاً

(١) في(أ): عني من المعصية.

بذلك، ففي ليلةِ الجُمعة رأى النبيَّ ﷺ في المنام فقال له: يا يحيى، لا تتضجَّرْ؛ فإنّي أَتضجَّرُ من ضجرتك؛ ولكن سافرْ إلى خُراسان، فإنَّ امرأةً تقضى عنك مئةَ ألف درهم. قلت: يا رسول الله، مَنْ تلك المرأةُ؟ وفي أي بلدٍ هي؟ فقال ﷺ: امض إلى خراسان بلدةٍ بلدةٍ وحدّثْ لهم، وعظْهم؛ فإنَّ وعظَكَ شفاءٌ للقلوب، وأنا كما جئتُ إليك في نومِك أَجيءُ إلى ذلك الشخص، وآمرُهُ بقضاء ديونك.

فرحل إلى نيسابور، واجتمعَ عليه الناس، وصَعِدَ المنبر، وقال: يا أيُّها المسلمون، ما جئتُ إلاّ بأمرِ النبيِّ ﷺ؛ فإنه قال ﷺ: يقضي ديونَكَ شخصٌ واحدٌ، وعليَّ مئةُ ألف درهم من الفضة دينًا، وكان لكلامي قبل هذا جمالٌ، ولكنَّ الدَّينَ صارَ حجابًا. فقال شخصٌ: عليَّ خمسون ألف درهم. وآخر: عليَّ أربعون ألف درهم. فلم يقبل يحيى، وقال: قال النبي ﷺ: يقضي ديونَكَ شخصٌ واحدٌ، ثم شرعَ في الكلام، وفي اليوم الأول رُفعتْ من مجلسه سبعُ جنائز، ثم رحلَ إلى بلخ، وجاء إلى مَرو، ثم إلى الهراة، وقصَّ عليهم النوم، وكانت بنتُ الملك حاضرةً في المجلس، فبعثت إليه وقالت: ليكنْ قلبُك فارغًا من جهة الدَّين؛ فإنَّ سيدَ المرسلين ﷺ جاءَ إليَّ في النوم، وأَمرني بقضاءِ دينك. فقلتُ: يا رسول الله، أنا أَسعى إليه؟ قال ﷺ: بل هو يجيء إليك، وكنتُ أَنتظر قدومَك، وقالت: جهّزني أبي عند التزويج بثلاث مئة ألف درهم، وأنا بذلتُ لك الكلَّ، ولكن أرجو منك أن تعظَ الناس في أربعةِ مجالس أُخرى. ففي المجلس الأول رُفعت عشرُ جنائز، وفي الثاني خمسٌ وعشرون، وفي الثالث أَربعون، وفي الرابع سبعون، وفي اليوم الخامس جاؤوا إليه بسبعةِ أَحمالٍ من الفضة، وابنُه كان معه، فأضمرَ في قلبه أنّه يَصرفُ جميعَ هذه الأموال في الغرماء، ويحرمنا منها. فيحيى رحمه الله[1] كان في السحر مشغولاً بالمناجاة، فسجدَ وضربَ على رأسه بحجرٍ، فرفع رأسَه وقال: اصرفوا هذا

(١) في (ب): منها. فيجيءُ الليلة رحمه الله.

المالَ في الغرماء. وماتَ إلى رحمة الله تعالى، ثم حمله أهلُه إذ كانوا معه، وجاؤوا به إلى نيسابور، ودفنوه في مقبرة آلِ النبيِّ ﷺ.

اللهم ارضَ عنه وعنّا، واجعلْ لنا برحمتك لسان صدقٍ في الآخرين، وأَنعمْ علينا كما أنعمتَ على عبادك المُتّقين، وأَحسنْ إلينا إلهنا ومولانا كما أَحسنتَ إلى أولئك الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، إنك رحيم كريم.

* * *